صفحة من تاريخنا الاجتماعي (١)

أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم (صفحة من تاريخنا الاجتماعي) . وقد أردتُ بقولي (صفحة) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالتنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين (٢٥٠) و (٣٥٠) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

واردت بقولي (تاريخنا) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء وقضاة وعلماء واعيان .

اما قولي (الاجتماعي) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي الذي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يثور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شحنوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كأن الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكتاب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طُرُز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طُرُق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

---

(١) للاستاذ المغربي ألقاها في ردهة المجمع العلمي في ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

والكم لتعلمون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي تتألف منها كتب المطالعة ثم تُعطى الأحداث والطلاب فيدرسونها و يستفيدون منها عقلاً وتجربة . وان مكتبتنا العربية لفي حاجة الى أمثال هذه الكتب المفرغة في قالب كتب المطالعة الافرنجية المعروفة باسم (Lecture) .

ومن مواضع الاسف اننا نرى المتعلمين من شبابنا مُلمين بالشؤون الاجتماعية عند الاوربيين وبسيرها في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن أمتهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الاوربية في عهد ملكها الفلاني في قرنها الرابع عشر مثلاً — كانوا يفعلون كذا . أو كانت عاداتهم كذا . او حالتهم العائلية او المعاشية كذا . بينما هم اذا سُئلوا عن الحالة الاجتماعية في أحد عصورنا التاريخية قالوا ان السلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية . أو الأسرة الفلانية . وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت و كيت .

وليس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لابنائنا وطلاب مدارسنا كما لا يخفى .

وقد يستثنى من كتب التاريخ عندنا ما كتبه ابن خلدون في مقدمته . والمقريزي في خططه . والقلقشندي في كتابه (صبح الاعشى) . وعبد اللطيف البغدادي فيما وصف من الآثار . ومواطن الاعتبار .

بل ما يدرينا أن يكون لعلمائنا السالفين اشباهُ هذه المصنفات الممتعة في وصف احوالنا الاجتماعية ثم أبادتها التعصبات الدينية . والحروب الطائفية . وما بقي منها انتقل الى مكتبات اوروبا . وخزائن علمائها المستشرقين .

وقد انتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعاتنا العربية الحديثة من المصنفات في تاريخنا الاجتماعي فأخذوا ينبشون تلك المصنفات من مكامنها و يطبعونها و يعلقون عليها شروحاً وهوامش ممتعة جداً . وقد جلب مجمعنا العلمي الى مكتبته طائفة من هذه الكتب . أذكر منها عجائب الهند للرامهرمزي ونشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسن التنوخي وطوق الحمامة لابن حزم والموشى لأبي الطيب محمد بن اسحق وكتاب الولاة والقضاة لابي عمر الكندي

ولا تنسوا (مقامة ابي القاسم البغدادي) لابي المطهر الازدي التي كانت موضوع محاضرتي السابقة .

اذن يحسن بنا ان نخفف لهجة اللوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحمهم الله تركوا لنا ثروة عظيمة من التآليف في كل فن من فنون العلم والادب . لكننا نحن أحفادهم أضعنا الثروة . وقصرنا في حفظ التركة .

قلتُ ان موضوع محاضرتي التاريخ الاجتماعي لكن لا تحسبوا أنني سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علماء الاجتماع . ولا في نظرياته الدقيقة التي كثر الخصام حولها بين أفلاطون وأرسطو وشيشرون في التاريخ القديم . وبين مونتسكيو وسبنسر ونيتشه وشوبنهور في التاريخ الحديث . لا أخوض في ذلك كله اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية . وليس هو من مواضيع المحاضرات العامة .

وانما سأتخطى تلك القواعد والنظريات العقلية الى وقائع وجزئيات تاريخية جديدة لم تتناقلها الافواه بعد : يلتذ بها محب التاريخ — وكلكم ايها السادة تحبون التاريخ — فتقارنون بينها و بين ما يقع من اشباهها في زمننا الحاضر . كما يستفيد منها اخواننا الصحافيون والكتاب الاجتماعيون وطلاب المكاتب العالية من حيث يرون فيها مادة لمقالاتهم . ونموذجات اجتماعية يستشهدون بها في مباحثهم ومناظراتهم .

هذه الاخبار والحوادث التي أرويها لكم منسقة على هذه الصورة في مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معناها الذي كان يفهمه علماء الادب . عندنا معشر العرب : فمحاضرات الراغب الاصفهاني . وحسن المحاضرة للسيوطي . ونشوار المحاضرة للقاضي ابن علي المحسن التنوخي — لم تُسَمَّ كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة تفيد القارئين . وتلذ السامعين . وها انا في محاضرتي هذه أحذو حذوهم . واسلك طريقتهم .

ومعظم ما أرويه لكم فيها مقتبس من كتاب (نشوار المحاضرة) للقاضي التنوخي المذكور مع تصرف قليل أو كثير حسب ما يستدعيه المقام .

طالت المقدمة فلنجتزئ بما مر . ولنقبل على الموضوع فنقول :

* * *

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقومات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع . ومن ذلك الكتب التي يصدرها (محل يدركر) عند الاوربيين . وقد قدم فيها كتاب العرب وسموها (دليلاً) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة . ويظهر ان العرب في العهد العباسي ألفوا مثل هذه الكتب : فان (احمد بن الطيب) ألف كتاباً عن بغداد وما فيها . وقد توفي أحمد هذا سنة (٢٨٦) هـ . وكذلك (يزدجرد الكسروي) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه (بغداد) في عهد الخليفة المقتدر المتوفى سنة (٣٢٠) وقد أحصى ما فيها من الابنية والشوارع والدروب والحمامات والسكان والسفن والملاحين وما ينفق فيها من الحنطة والشعير وسائر الاقوات .

ومما ذكروه على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من الثلاثين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من نقود زماننا نحو مائتي الف قرش . والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون (مرورية) على الثلج الوارد الى بغداد .

وقدروا ما يأكله أهل بغداد من صنف الحس في زمن موسمه بنحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليره من نقودنا .

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو (٨٤٠٠) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر . فمجموع ذلك بالقناطير نحو (٣٣٦) قنطاراً من الحمص السويق .

والسويق دقيق الحنطة والشعير ولكن بعد تحميصهما على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفّاً او يجدحه (يخلطه) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله . قال أعرابي : « السويق » عدة المسافر وطعام العجلان وملغة المريض .

ويظهر ان اهل بغداد في ذلك العهد اتخذوا سويقاً من الحمص كما سمعتم : فكانوا يحمصون الحمص ويطحنونه ويأكلون طحينه سفّاً أو بصورة أخرى .

ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الحنطة والشعير . ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع اهل بغداد : فاننا نحمص الحمص ونسميه (قضامة) ثم نطحن

القضامة حتى تصير ناعمة ونمزجها بالسكر وهذا هو السويق بعينه كما لا يخفى .

وجرى في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجها والنقصان الذي طرأ عليها . فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ في دارنا الوزير ابو الفتح المعروف بابن حنزابه وكنت يومئذ حدثاً صغير السن فكان يناديني فتحدث ونلعب بالشطرنج . فجرى يوماً بيني وبينه ذكر الخليفة المقتدر ونقصان دخله عن خرجه بسبب كثرة إسرافه وتبذيره . فشرح لي ذلك شرحاً وافياً (على أصول البودجه) . ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ . قال ولو مكنوني من إدارة ضياعنا وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه . وان فرق ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلموني اياها يعجز الدنيا كلها . وليست أملاكنا سوى شقص يسير من الارض . فكيف لو كان للدنيا من يهتم بعمارتها كلها ؟ اه .

هذا ما قاله الوزير وهو مختبئ خائف من الخليفة . وباليته يحيى اليوم فيرى بعينه كيف تستثمر الدنيا وتستعمر . فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمارتها واستثمارها بحسب طريقته الاقتصادية المدهشة .

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم ويقيمون الزين والمهرجانات لاسيما يوم النيروز . واصل النيروز عيد للفرس قدمه العباسيون والمصريون في الاحتفال له . وكانوا يهدون فيه للخليفة النفائس والطُرَف كما يهدي بعضهم الى بعض . ويشعلون النيران . ويضعون على شُرُفات الدور والقصور مجامر طين . ويأتون بحب القطن (اي جوزه) فيشربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطيبة الفاخرة . ويشعلون هذه الحبات فتفوح رائحتها . وتتلألأ في الظلمة أنوارها .

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقتدر الى عمياها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الآفاق ألف شقة زهرية خفاف جداً . وبعد طويل عناء في البحث عنها جُلبت . فاستدعت الخياطين الى القصر وأمرت ان يفصلوا من هذه الشقق أزراراً على هيأة حبات القطن

ويحشونها خرقاً ويخيطونها ويشربونها دهن البلسان ويشعلونها مكان حبات القطن ويحامر الطين .

ومن جملة هوسهم في موسم النيروز اتخاذهم أعباً بطول الصبيات يزينونها بالحلي وفاخر الثياب . ويسمي المصريون اليوم لعبهم هذه عرائس ويصنعونها من سكر . ويسمّون في بغداد هذه اللعبة (دوبار كه) وهي كلة فارسية . واظن انها مركبة من (دوباره) حيلة مكر . و (كه) من كيمك وهو اللبس اي حيلة مستترة مغطاة بالثياب . ويُخرجون (الدوبار كه) وأمامها مشاعل النيران والطبول والزمور . ومن اللطائف ان (عائدة بنت محمد الجهنية) نظمت أبياتاً هجت بها الوزير أباجعفر الكرخي فشبهته بالدوبار كه لقصره وجمال ثيابه فقالت :

(شاورني الكرخيّ لما أتى النيروز . والسنّ له ضاحكه)
(فقال ما تُهدي لسلطاننا من خيرما الكفّ له مالكه؟)
(قلتُ له : كل الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكه)
(أعْدِ له نفساً حتى اذا أشعل ناراً كنت دوبار كه)

وهكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد يتأنقون في الثياب ويقتنون فاخر اللباس والرياش والاثاث ويسمون ذلك مروءة .

وبالغ أحد اهل الانبار في اتخاذ الثياب فكان يضع كل ضرب من ضروب الثياب في صندوق : دراريع الديباج في صندوق والدراريع الدبيقية [1] كذلك القمص والسراويلات والجباب والطيالس والعمائم — كل ضرب في صندوق خاص . وكانت للانباري سرية تزوجها فلم تلد له . وكان له أبناء عم فلما مرض وأشرف على الموت أسرعت فأخرجت من الدار جميع أمتعته وصناديقه سوى قليل منها تركته . لكنها نسيت صناديق السراويلات فلم تخرجها . ثم مات زوجها وجاء ابناء عمه فختموا خزائن الدار بواسطة المحكمة . ولما انقضى العزاء فتحوها فوجدوها (أفرغ من فؤاد أم موسى) ولم يجدوا سوى صندوق السراويلات فرفعوا أمرهم الى القاضي (ابي جعفر البهلول) فأحضر الجارية (وافتتحت الجلسة) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن

(١) نسبة الى دبيق قرية في مصر .

عمنا بالاثاث والرياش واللبوس فأين ذهبت كلها ؟ ولما ذا لم يوجد من ثيابه الا هذه السراويلات الكثيرة ؟ ولما ذا لم يوجد على نسبتها من الدراريع والجباب والطيالس؟ قال فأقبلت الجارية على القاضي محتدّة كأنها أُعدّت الجواب وقالت : (أعز الله مولانا القاضي! أما سمعت ماحكاه الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتي هاون . وابن عمهم كان يعشق السراويلات مثله) فضحك القاضي وانفضّ المجلس من غير شيء وكسبت الجارية الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ .

اما الوزير (علي بن عيسى) فكان يتخذ من الملابس الأليق بالوقار والتقشّف وكان يُحب ان يبين فضله في ذلك على كل احد . فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر وعليه قميص دبيقي فاخر . فأراد الوزير ان يخجله فقال له : (يا مولانا بكم اشتريت شقّة هذا القميص) قال بمائتي دينار [1] . فقال الوزير ولكنني اشتريت شقة هذه الدرّاعة والقميص الذي تحتها بعشرين ديناراً . فأجابه القاضي على الفور : الوزير أعزّه الله يُحمّل الثياب ولا يحتاج الى التأنق فيها . اما نحن فنتجمل بثيابنا . ونتأنّق فيها . والفرق بيننا اننا نخالط العامة وغيرهم ممن يلزم ان نقيم الهيبة لنا في نفوسهم . والوزير لا يدخل عليه العوام . وانما يخدمه الخواص الذين يعلمون انه يترك التأنق بالثياب عن قدرة . فسكت الوزير مغلوباً .

هكذا كان شأن قضاتهم من حيث التجمل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على الوقار والسمت : فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي اجيء لألعب بقرب جدي القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فيصيح عليّ . والسبب في ذلك انني كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس متوقراً عليّ . وسني اذ ذاك نحو عشر سنين . وبقي على تلك الجلسة الى ان انصرف . فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت .

سمع وقار هذا القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فاسمعوا متانته في الحق : دعته السيدة ام المقتدر يوماً اليها . وكلفته إحضار بعض سجلات المحكمة وحكّ احد الصكوك فابى عليها وقال : هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف : انا خازن المسلمين على

(١) نحو مئة ليره من نقود زماننا .

ديوان الحكم : فإما مكنتموني من خزنه والا فاعزلوني وغيّروا و بدّلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لايشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقتدر : ففي يوم الموكب سأله عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يقضي ان يُعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقتدر (مثلك يا ابا جعفر من يُقلّد القضاء . أقِرّ على ماانت عليه . بارك الله فيك . ولاتخف ان يثلم ذلك عرضك عندنا) ثم عادت السيدة فتذمّرت امام ابنها من القاضي فقال لها : (الاحكام مالا طريق الى اللعب به . وابن البهلول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ دينّ مستجاب الدعوة . ولو كان ماطلبته منه شيء يجوز ما منعك اياه) فسكتت على مضض لكنها عادت فحدّثت به رئيس كتّابها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكى . وقال لها (الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يُقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم [1] .

وبقدر اتساع دائرة الحضارة في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضلون عن مذهبهم . و يعقدون المجالس في المساجد لنصرته وتأييده . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحياناً كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الحاير لندب الحسين فكان الحنابلة يثورون ويمنعون الناس عن المضيّ الى الحاير .

وكان قوم يتعصبون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاغتنم الفرصة صديقان أعميان من الشحاذين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذاك في طرف . و يتسوّلان و يتوسلان باسم الصحابيين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصّب لكل واحد منهما فريقه . وتتساقط عليهما الدراهم . وفي المساء يجتمعان و يقتسمان غلة يومهما وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن ونفوذ يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمراء . وكانوا يشنّعون على القصّاص لكثرة مايروون من الاساطير . كما يشنعون على الذين يصدّقون

(١) وفي تمام الخبر ان السيدة ام المقتدر كانت تجهل أن ما كلفت به القاضي من تغيير الملك وحكمه حرام حتى أخبرها كاتبها بذلك فكفت وارعوت .

بكل شيء مما لايدخل تحت العقل . ويفتخرون بانهم هم لا يصدقون الا مايؤيده العقل الصحيح . وكانوا يعيبون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدّقون بالكرامات التي كانوا يسمونها (المعونات) : فإما لانهم يبخلون عليها باسم (الكرامة) او لان كلمة (الكرامة) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع . وكانوا يفتخرون بان فرقتهم لاتعوّل على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : (إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يخافون الجن) وتباهوا بعجوز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل و يتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسلمه الى امه ثم ينصرف الى لهوه . وكانت أمه تقوم طول الليل تتهجد في الغرفة التي فيها الكيس . فعلم بقضية الكيس والصبي احد اللصوص فطرق العجوز ليلاً وانتظرها لتنام فلم تفعل . ثم اعياه الامر فعمد الى الحيلة وفتش في البيت عما يساعده على حيلته . فالتحف بازار ابيض وأوقد مجمرة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهماً العجوز انه ملك سماوي . قال المعتزلي راوي الخبر . ولكن العجوز كانت معتزلية جلدة فطنت للحيلة فتظاهرت بالخوف وسألته من انت ؟ قال : ملك وقد جئت انتقم من ابنك لعصيانه . فتضرّعت اليه أن يرفق بوحيدها . فقال لابد من تأديبه : فانا اكتفي بأخذ دراهمه ليتوب قالت : لك ذلك وفتحت له عن الباب حتى اذا دخل الحجرة اوصدت بابها عليه فاستغاث بها فلم تجبه وقالت انت ملك يمكنك ان تنفذ من السقف . واقبلت على صلاتها . وجعل طول الليل يستعطفها وهي لاترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة .

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدّعون : فانهم كانوا يعتقدون بالتنجيم والطالع . وقد نهى عنهما الشارع . وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المنجمين ويمارس التنجيم بنفسه . ومن الغريب ان احد [1] قضاتهم أخذ طالع مولده فعيّن سنة وفاته و يومها . وتهيأ للموت فنغّص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم . لكن من تأثير الوهم . لامن روحانية النجم . واعتقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم .

(١) هو القاضي علي بن محمد التنوخي والد القاضي ابي علي المحسّن التنوخي مؤلف كتاب (نشوار المحاضرة) الذي لخصنا منه هذه الاخبار .

وكان المسلمون في ذلك العصر يعتنون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يوازرونهم بانفاق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الضائقة المالية أخيراً في بغداد وغلب البخل على اهلها وتجارها حتى ان بعضهم كان يسمي البخل (احتياطاً) وبعضهم يسميه (اصلاحاً) وكانوا يتواصون به . ويحذر بعضهم بعضا من الانفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قليلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم يتحونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم علي بغداد شاب أردنا ان نرتبطه ليتعلم لجودة قريحته [1] وكان يحتاج الى مئة درهم في الشهر . فكلمت ابن خنيف صاحب ديوان النفقات ورجلاً آخر من اصحابنا . فاجريا عليه مئة [2] درهم في الشهر . فبقي يأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكا اليّ بعض الفقهاء ان الطلاب الذين يحضرون حلقة ابي الحسن الكرخي احتاجوا الى الاكسية اذ قد قرس البرد . ففكرت فيمن اقصد ثم اجتزت في طريقي بدار . فقال لي بعض من كان معي : هذه دار تاجر موسر من اهل الخير فقاطبه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقام واكرم وسألني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين فحملها معي في الحال . ففرقتها على الطلبة . قال ثم تقلبت الاحوال . وشحت النفوس بالاموال . حتى جاءني رجل من اهل البيوتات فشكا من حاجته ما أبكاني . وقال ان صلاح امره في نحو ثلاثين درهما . ففكرت فما عرفت احداً يعطيها اذا سألته اياها . قال ولعل السبب في ذلك الشح كاب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يملكه سكان (درب مبرويه) فبلغ اربعة آلاف [3] الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا (ابو العربان)

وكما كانوا يهتمون بطلاب العلوم وإدرار الرزق عليهم كانوا يهتمون بالاسارى الذين يقعون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريف ما حكاه أسير مسلم عن

(١) يعني انه كان نابغة في الطلاب لكنه فقير ومثله يجب الانفاق عليه ليُنتفع بنبوغه (٢) نحو خمسين ريالاً مجيدياً من نقود زماننا (٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليوني ليرة .

نفسه قال : لما حملنا الى بلاد الروم مرّت بنا شدائد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نتلف . ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب باكسية وقطف (حرامات) ثقيلة دفيئة . فغطى جميع الاسارى . كل واحد بكساء . فسألنا عن السبب فقالوا ان رجلاً من تجار بغداد اسمه (ابن رزق الله) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يغطي بها من يصل الى قريته من أسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان ينفق من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للاسارى فالراهب يعتني بالاسارى كلما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو نصادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كلما لفحنا البرد تذكرنا (ابن رزق الله) واحسانه ودعونا له ونحن لا نعرفه .

لا جرم ان هذا التاجر المسلم والكاهن المسيحي كانا مثالين حسنين لابناء ملتيهما في عمل البر والتسامح وحسن التفاهم .

وحدّث القاضي ابن مكرم قال : دخلتُ على الوزير (علي بن عيسى) فرأيته مغموماً . قلتُ مالك ؟ نالك ما تكره من الخليفة ؟ قال الامر أشدّ : كتب عامل الثغور الينا يقول : ان أسرانا في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى تولّى مملكة الروم شابّ طايش فاضطدهم وأجاعهم وأعراهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً يتقدم فلم يطاوعني الخليفة المقتدر .

فقلتُ أصلح الله الوزير هنا رأي أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان لدى ملك الروم وقولهما نافذ عليه بحيث يحرمانه ويحلانه ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهما والبطريرك كان في عهدنا وبلادنا . فعرّفها الخبر . وانظر ما يكون من جوابها . فقال قد سرّيت عن قلبي قليلاً جزيت خيراً . ثم افترقنا وبعد شهرين طلبني فجئته وقد نسيت خبر الاسارى . فوجدته مسروراً فقال يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الاسارى أبرك رأي . وهذا رسولنا عاد من القسطنطينية . وأشار الى رجل في المجلس ثم أمره أن يحدثنا بما وقع : فقال اخذت رسالة البطريركين الى ملك الروم وقد كتبا له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأسارى المسلمين . فإما ان تكفّ عن الظلم والا لعنـاك وحرمناك » . فلما قرأ الملك الكتاب حجبني اياماً ثم دعاني وقال ما بلغ ملككم من أمر الاسارى كذبٌ . وها نحن أدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال فدخلتُ فاذا عليهم ثياب جُدد لكن وجوههم كأنها وجوه أموات . فقالوا نحن للملك شاكرون . جزاه الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجبهم ان الامر على العكس . وانني إنما أُخرت عن الاجتماع بهم ليرفهوا من حالهم . وسألوني من أين علمتم خبرنا؟ فذكرتُ لهم ما كان من اهتمام الوزير (علي بن عيسى) فضجوا بالدعاء له . وقالت امرأة كانت بين الاسارى (إمضِ يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هـذا الفضل) فلما سمع الوزير قول الرسول أجهش بالبكاء . وسجد لله شكراً .

* * *

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم كانوا يتعرّضون للاخطار بسببها . حتى كان العامل اذا عزل صادروه في أمواله . وعذبوه لاستخراجها منه . ولم يصِفْ أحد هذه الحالة بمثل ما وصفها به (ابو الحسين ابن عياش) مذ حكى عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسليمان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصدته يوم الموكب . واذا ببابه عظماء المملكة محجوبون . فلما رآني حاجبه ادخلني على الوزير وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقتدر . فطاولني في الحديث الى ان فرغ وشد سيفه ومنطقة وتبخر والقى عليه سواده [1] وخرج وانا معه . فتلقاه الناس بالتبجيل وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحد من اصدقاء ابي يجذبني من طيلساني . فالتفت اليه . فاشار عليّ ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان أفي بيتك خمسون الف دينار ؟ قلت لا والله . قال : ألقوى على خمسين الف مقرعة وصفعة ؟ قلت لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى بابه العظماء أمثال فلان وفلان محجوبون يتمنون الوصول اليه . ثم تخرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نُكب نُكبت معه

(١) سواده اي لباسه الرسمي و يكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد وعنهم اخذه العثمانيون .

بداعي انك من خواصه . وليس معك خمسون الف دينار تفدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مقرعة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظماء . فقال يابني لا تعاود . فان هذا يجرّ عليك نقماً . قال فمن يومئذٍ جعلت أتجنب الدخول على صديقي الوزير في مواكبه العامة .

ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لا يضيعون فرص الاستفادة وجرّ المغانم .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر الشافعي كان من أخصاء (علي بن عيسى) الوزير فلما عزل عن الوزارة وتولاها ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من التنكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقديم رقاع أصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . ويغض عن كثرتها . الى أن قدّم اليه يوماً رقاعاً كثيرة جداً أضجرت الوزير وظهر الضجر في وجهه . قال ابو بكر فقلت له (ايها الوزير ! اذا كان حظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصفع . وحظنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى يا ترى يكون النفع ؟) قال فضحك الوزير . ولم يعد يضجر منه مهما كثرت الرقاع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجاه صديقه بعد ان يكون أخلص في خدمته . ومساعدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي (عبيد الله ابن سليمان) فمازحته يوما قائلاً : حبّ لي هذا المعروف الى وقت انتفع به . وبعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي ادلني اذهب اليه . قلت كلاّ لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كان يوم الاحتفال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام اليّ وعانقني أمام جمهور الحفلين وقال في أذني : هذا وقت تنتفع فيه بقيامي لك . ثم أجلسني على طرف الدست [1] فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبث ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت اليّ عيون الناس وخاطبوني باجلّ خطاب ثم عاد الوزير ضاحكاً واخذ بيدي الى دار الخلوة . وقال : ويحك يا فلان!

(١) الدست للوزير كالعرش للملك والمنبر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسببك وذلك أنه كوتب [1] بخبر قيامي لك في مجلس الوزارة وقال لي : لتبذل مجلس الوزارة بالقيام للتاجر !! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا بل لو كان لولي العهد لكان كثيرا » فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايتي مع الرجل مذ استترت بداره كيت وكيت . وقد قال لي وقلت له كيت وكيت . فقال اما الآن فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود . فقلت نعم وانصرفت . ومع هذا فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه .

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوصول الى أغراضهم من طريق الشفاعات . وأخذ كتب التوصيات . ولكن كان بعض المنهوّرين لايبالي تزوير كتب على لسان الوزراء لاجل نيل الأمانة وقضاء الوطر . ورووا في ذلك حكايات عجيبة :

منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عياش . قال : رأيت صديقاً لي جالساً على زورق مربوط بجانب جسر بغداد على نهر الدجلة في يوم ريح شديدة . وهو يكتب فقلتُ له ويحك !! أفي مثل هذا الموضع ؟ ومثل هذا الوقت ؟ فقال أريد ان أزوّر كتاباً على رجل مرتعش الايدي . ويدي لاتساعدني . فتعمّدت الجلوس ههنا ليتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجيء خطي مرتعشاً يشبه خطه .

ومع هذا التدليس والتزوير الذي كان يقع في تقليد الوظائف كان الوزراء وكبار القضاة يشدّدون في انتقاء العمال ويبذلون الوسع في البحث عنهم : فكان القضاة مثلاً لايقبلون شهادة كل أحد . فهم يعينون من قبلهم اشخاصاً مزكّين لديهم . ويعلمون أنه من أراد ان يعقد عقداً من عقود المبايعات وسائر المعاملات فعليه ان يُشهد احد هؤلاء : لئلا يشهد غيرهم فلا يكون مزكّى عدلاً . وتسمى هذه الطائفة المعينة للشهادة بالشهود والعدول . ولكن ما أشدّ عناية قضاة ذلك الزمن بانتخاب هؤلاء العدول .

قال ابو القاسم الهاشمي : قبل القاضي ابو عمر شهادتي وأعلن انني من العدول . ثم بعد ذلك خلوت به مرة . فجاء ذكر الملاهي . فقلت : ان فلاناً يضرب بالرباب

(١) اي انه كان للخليفة في مجلس الوزير عيون وجواسيس ينقلون اليه الاخبار حتى خبر هشاشة الوزير وحفاوته بصديقه . وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً : هو ذا تهزأ بنا! هو ذا تُمَيِّس [1] علينا ! ما هذا الكلام ؟ قلتُ ما الخبر ايّدالله القاضي ؟ قال : تقول (يضرب الرباب) كأنك لا تعلم ان الرباب يُجرّ جرّاً ولا يُضرب ضرباً (يعني انك تتظاهر أمامي بورعك وانك لاتسمع الملاهي) . فحلفت له بأيمان مغلّظة أني ما رأيت الرباب قط . فقال : ان هذا آفة وسبيل الصالح ان يعلم طرق الفساد ليجتنبها على بصيرة لا على جهل [2] . قال فعدتُ الى داري وقلت لسائس دابتي : ويلك! اطلب لي رباباً . فجاء به فجرّه بين يدي . فاذا هو كما قال مولانا القاضي . يجرّ جرّاً . ولا يُضرب ضرباً .

الى هذا الحدّ بلغ نظرهم في الامور . ودقّتهم في ادارة الاعمال . فالمحتسب [3] مثلاً كان يدور في الاسواق بنفسه ويهتمّ جد الاهتمام بايفاء وظيفته .

ولما تولى (ابو القاسم الجهني) الحسبة في البصرة قال المدوّنون من أهلها إشهر ما رأوا ولا سمعوا من بلغ مبلغه في ضبط العامة . ورفع الغش . وتفحص البضائع والامتعة . وقد طالب الناس بمطالبات صعبة . فانتشر له حديث جميل في البلد . وهيبة في قلوب العامة . ومما اتفق له ان اجتاز يوماً في بعض السكك . وبين يديه أعوانه . وكان هناك مؤذّن يؤذّن . فتصارخ الناس الجُهني الجُهني !! فتطلّع المؤذّن فرآه فقال : (الحمد لله الذي لم يجعل لك عليّ طريقاً ولا بيننا معاملة) . وأقبل على أذانه . لكن الجُهني كان سمع قوله . فقال لرجاله خذوه الى الدار (دائرة الحسبة) فضجّ المسكين وضجّ جيرانه . وذهبوا معه الى الدار . وقالوا للجهني : أمرتَ بإحضار هذا المؤذن المسكين فاي طريق لك عليه ؟ فلم يرد عليهم . والتفت الى المؤذن وقال : (أريد أن تحلف لي انك لا تدخل المسجد بالنعل الذي تدخل به

(١) التميس التلبيس والخداع . (٢) على حد قول الشاعر :

(عرفت الشرّ لا لا ـ شر لكن لتوقيه)

(ومن لم يعرف الخ ـ ير من الشر يقع فيه)

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعني ملاحظة ما يقع في الاسواق من أمور المبايعات والمكاييل والموازين والاسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية والادبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم .

الكنيف . وان لا تؤذن الا بطهارة — «ولا تطلع الى الجيران من فوق المنارة » .
فتضرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أو انك لا تؤذن . فمازال
الجهني به حتى حلف . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ أعلمت ان لي اليك طريقا ؟
وان بيننا معاملة ؟ فقال : أخطأت أيدك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود
الكلام في لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرة . والثرثرة معثرة .

لكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدد في ضبط العامة نجد من وزراء
ذلك العهد وكبرائه كرما وسخاء وتواضعا وحياء : فقد وقفت يوما امرأة في طريق
الوزير (حامد بن العباس) وشكت اليه الفقر ودفعت اليه قصة (اي استدعاء) فوقع
لها فيها بمأتي دينار . ولما ذهبت الى (الجهبذ) [1] انكر المبلغ واستكثره (لانه قريب من
مئة اميرة وهي ترضى بأقل من ذلك) وراجع الجهبذ الوزير . فقال الوزير هو ماذكرت .
لكنني لما اردت ان اوقع لها بمأتي درهم جرى لي بمأتي دينار . ولن أرجع . فأعطها
الدنانير . فاعطاها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . يقول فيها : إني وامرأتي
فقيران . ومنذ ايام جاءتني امرأتي بمأتي دينار تقول ان الوزير حفظه الله وهبها إياها .
واخذت من يومئذ تستطيل علي وتكبر وتقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح
لها بعلا وكلفتني طلاقها إذ لم يعد يطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي .
فان رأى الوزير ان يكتب الى القاضي بأمره بجلب زوجتي وزجرها والنصح لها بطاعتي
فعل . ففحك الوزير ثم وقع له بمأتي دينار أخرى . وقال له الآن صرت غنيا مثلها فلم
يعد حاجة للقاضي . فاستام الرجل دنانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .

(المغربي)

---

(١) كلمة فارسية كانوا يريدون منها ما نريده نحن اليوم بكلمة الصراف او المحاسب